على مبارك العالِم المهندس كانت لغته قد تجاوزت بعض كتّاب عصره لانصرافه إلى أفكار ومضامين جديدة شاء أن ينقلها إلى أبناء عصره شغلته عن اصطناع البديع وإضاعة الوقت فى الغازه . خذ مثلاً حديثه الذى رواه على لسان السائح الإنكليزى عن قوة البخار « أول من تنبه لاستعمال قوة البخار (هارون الإسكندرى) المصرى ، وذلك أنه صنع كرة مجوفة تدور على محور أفقى دورة رحوية ، وجعل فيها أنابيب على خط واحد حولها ، وجعل أطراف هذه الأنابيب معوجة إلى جهة واحدة ، فمتى قوى البخار فى جوف تلك الكرة خرج من تلك المعوجات ، فأوجب حركتها فتدور على محورها كما تدور الرحى . . » [١٩] ، فهو يعرض الجذور التاريخية للتفكير فى تسخير قوة البخار ، ثم ينتقل إلى العصر الحديث عند العلماء الإيطاليين والفرنسيين والإنجليز إلى أن تم اختراع القاطرة ، وهو يمزج بين توضيح أفكاره وتبسيطها تبسيطاً علمياً غير مخل ، وبين طبيعة الأدب التى تقتضى جمال الأسلوب وسلاسته .

والغريب أنه فى اللحظات التى كان يستشعر فيها الحنين لأهله وتنتابه آلام الغربة كان أسلوبه يثقل ولعله يعادل وخم نفسه وهمودها « يا حضرة الخواجا ، ومَن كشف عن غامض العلم سياجه ، ليس الأمر كما فهمت ، وإنما تذكرت الأهل والوطن